شرح قصيدة البردة

كتاب مشارق الأنوار المضية، في شرح الكواكب
الدرية، في مدح خير البرية، للشيخ الامام، والبحر
الهمام، العالم العلامة، والعمدة الفهامة، الحبر
الفخام، ملك العلماء الاعلام، واوحد الفضلاء
الفخام، شهاب الدين احمد بن محمد بن ابي
بكر القسطلاني تغمده الله تعالى
بالرحمة والرضوان بجاه
سيد ولد عدنان
صلى الله عليه وسلم
وشرف
امين

٧٩٦

٧٥٢١

٤٩

٤١١٩

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
الحمد لله الذي شرح بمدح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قلوب اوليائه • ونعم ارواح محبيه
في رياض معاني اسمائه • ووشحهم ببردة محاسنه وطيب اسرارهم بطيب ثنائه
احمده على ما منحنا به من عطاياه • واسديه من الآيه واشكره على ما من به من
كشف غطاياه ودفع من الاوايه • واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الذ
تفرد في ازليته مع كبريائه • وتوحد في ارحميته ابديته بدوام بقائه • واشهد ان محمدا
عبده ورسوله خاتم انبيائه • واكرم مبلغ لانبائه • صلى الله عليه وسلم وعلى اله واصحابه
واوليائه • ما رخت عذبات البان ريح صبا واطرب العيس حداته وبعد فهذا
تعليق على القصيدة الموسومة بالبردة التي نظمها الامام العالم العلامة شرف الدين
ابو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد الابوصيري اثابه الله الفردوس من البحر المسمى بالبسيط
وامتدح بها سيد المرسلين • وخاتم النبيين • محمدا عليه افضل الصلاة والتسليم اختصرت
فيه شرحها للعلامه الاستاذ المحقق ابي عبد الله محمد بن مرزوق المغربي التلمساني
المالكي مع زيادات من غيره كشرحها الامام ابي العباس الاسدي والعلامة الجلال
المحلي وغيرهما وسميته مشارق الانوار المضيه • في شرح الكواكب الدريه • في مدح
خير البريه • والله اسال ان ينظمني في سلك العلما العاملين • والاوليا المقربين •
وقد اخبرني بالقصيدة المذكورة الشيخ الاصيل ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد
المصري الشافعي قال اخبرنا سند الدنيا محمد بن محمد الاسكندراني القاهري
سماعا عليه قال اخبرنا الشيخ العالم العلامة ابو عمر ابن العلامة ابي عبد الله
محمد الكناني الشافعي سماعا عليه قال اخبرنا العلامة ابو عبد الله محمد الابوصيري
قال بعد ان نزل نفسه منزلة مخاطب يخاطبه لما راه باكيا وقد امتزج دمعه
بالدم مستفهما له عن سبب بكائه بالهمزة امن بفتح الهمزة وكسر الميم تذكر
بفتح الاولين وضم الكاف هشروحة مصدر تذكر كتفعل من الذكر ضد النسيان
جار ومجرور متعلق بمزجت اضيف الى قوله جيران بكسر الجيم كفعلان جمع جار

اى

اي من اجل تذكر جيران كانوا بذي سلم وهو موضع بين مكة والمدينة قريب من قديد
والباقي فيه ظرفية وهو صفة لجيران وعامله محذوف اي كائنين ولك ان تعلم ان الذي يلي
همزة الاستفهام هو المستفهم عنه فاذا استفهمت عن الفعل قلت اضربت زيدا
اوعن المفعول قلت ازيدا ضربت ولك اذا كان المستفهم عنه انما هو سبب مزج الدمع هناصح
بالدم اولاه الهمزة ولم يوليها المزج لانه ليس محققا واخره فقال مزجت بفتح التا
اي خلطت دمعا بالنصب على المفعولية جري اي سائل من مقلة بدم
جار ومجرور متعلق بجري والمقلة شحمة العين التي تجمع السواد والبياض وفيها
الحرقة وهي السواد الذي في وسط العين وفيها الناظر والانسان وهو
موضع البصر منها الذي تراه كانه صورة وليس بخلق مخلوق والعين كالمراة
اذا استقبلها شخص راي شخصه فيها لشدة صفا الناظر والناظر ايضا
عرقان في العينين وفي استيفا الكلام على هذه المادة قول محله كتب التشريف
والدم واحد الامشاج الاربعة التي خلق منها الانسان وفي قوله جري
من مقلة بدم احتراس وسمي ايضا تكميلا لانه لو اقتصر على قوله مزجت دمعا
بدم لكان مما يحتمل الكلام ان الدمع بعد انفصاله من العين مزج بدم اجنبي
وليس هذا مراده فرفعه بقوله جري من مقلة بدم وهذا يرد قول من قال
ان قوله من مقلة حشو لا فايدة فيه لان الدمع لا يجري الا منها وتعريف
الدمع هو الما الملح السايل من العين مع البكا سخن ان كان للحزن والا فبارد
وسببه مضاعفة الحرارة العزيزية بالحرارة الحادثة بحركة النفس الشديدة
عند الفرح والحزن الا انها مع الحزن اقوى فلذلك يخرج مسخنا كالما الشديد
الحرارة اذا فارق النار القوية لا يبرد الا بعد حين فان كانت الحرارة ضعيفة
وبنفس مفارقتها يعود الى اصله وقل خروجه مع الفرح لان النفس
تنبسط معه فتتبدد الحرارة على الجسد فيضعف فعلها والاكثر مع الحزن
لان النفس تنقبض فتخرج الحرارة على صوب واحد فتغور الرطوبات المايية

امامها فاذا فرغت خرج الدمع لانه اقرب من غيره لعمومه للاعضا و سريانه في
سايرالعروق وفي هذا البيت براعة الاستهلال لانه علم منه ما قصده من مدحه
صلى الله عليه وسلم بذكر الجيران بذي سلم فانه من جبال المدينة وفيه الاسناد المجازي
لان المخاطب لم يمزج الدمع بالدم بل فعل سببه نحو بنا الامير والتنكير في قوله
جيرانا ودمعا ومقلة ودم اما للتعظيم او للنوعيه وفيه ايضا التجنيس الناقص
في دم ودمع باختلافهما لزيادة حرف العين ثم عطف على مع قوله تذكر قوله
ام هبت الريح يعني امن تذكر جيران من حبك الدمع ام من اجل ان هبت من
تلقا ناحية او قرب كاظمة موضع قيل بقرب المدينة الشريفة واومض البرق
اي لمع خفيا في الليلة الظلماء من ناحية اضم بكسر الهمزة جبل وقيل واد
وحقيقة البرق عند الحكما واهل الهيئة نار تحدث عند شدة اصطكاك اجرام
الهوي بعضها بعضا ولذلك اكثر ما يكون عند انتقال الزمان من البرد الي
الحر او العكس وباتي البرد فيصادف الهوي حارا وبالعكس فتحدث اصوات
الرعد من ذلك الاصطكاك واما السنيون يقولون ان الرعد ملك وقيل
صوت ملك يزجر السحاب الي الجهات التي يريد الله والبرق صوته ثم استفهم
لما انكر ان يكون سبب بكايه واحدا من الامرين اي تذكر الجيران وهبوب
الريح بقوله فما لعينيك ان قلت لهما اكففا فعل وفاعل في موضع نصب
مفعول لقلت اي اخبرني عن البكا هما اي سالتا وفاعل التمييز محذوف
للعلم به والفا في جواب شرط مقدر اي كان انكارك حقا فاي سبب اوجب
لعينيك لما ان قلت اكففا بكا كما هما وما لقلبك ان قلت له استفق
من غمرتك بهم مضارع هام والهيام كالجنون في النشبيه يقال هام في
العشق لا يدري اين هو وخص القلب لانه محل العقل عند اكثر السلف
قال تعالي لهم قلوب لا يفقهون بها وقالت طايفة محله الدماغ ومنهم من
جمع بين القولين لما بينهما من الاتصال وهو شكل صنوبري وموضعه من

الجسد

المدينة

الجسد وسط الصدر وهو منبع الحيرة وعنصر الحرارة الجسم ولم يجز السيول جوابا
وافحمه السايل بالسوال المسكت والالزام المبهت رجع الى تغليطه في
انكاره حالة الحب التي لا تخفى فقال منكرا احسب الصب اي يظن العاشق
المشتاق او المستهام الذي ولهه الحب ان الحب منكتم عن الناس اسم فاعل
من انكتم اي استتر وما بين دمع عيني منسجم منه بمعنى سايل وحر قلب
مضطرم منه اي ملتهب والطابر لد من التا واصله مضترم كمفتعل وما
في قوله ما بين زايدة وفي قوله اكففا وهما للطابقة ويسمى الطباق والتفا
وهو الجمع بين ضدين او متقابلين وكان السيول قال للسايل سلمنا انكارك
على الصب ظنه خفا حبه لكنه لست بصب فما دليلك على ذلك فقال
السايل لولا الهوى موجود لديك لم ترق اي لم تصب دمعا على طلل
منسوب الى الاحباب اي في طللهم ان قدرنا انه شاهده يبكي بين الاطلال
وفيه تكلف وان لم نقدر وقوفه على الطلل فهي للتعليل اي من اجل ان
ذكرت او ذكرت لك اطلال الاحباب والطلل ما ارتفع من اثار الدار
والجمع اطلال وطلول ولولا حرف امتناع لوجود وهي تلزم الدخول
على المبتدا وهو هنا الهوى وخبره محذوف وجوبا على الصحيح والتقدير
كما قدرناه لولا وجود الهوى ويغني عنه في الغالب جواب لولا ولم
والفعل المجزوم وما تعلق به جواب لولا ودمعا مفعول ترق ثم اردف
هذا الدليل وهو اراقة الدمع على الطلل بدليل اخر فقال ولا ارقت
بكسر الراي ولولا الهوى لم تسهر لذكر بحر البان والعلم وبحر البان ببلاد
الاحبة والعلم جبيل او الجبل الطويل وهو من جبال الاحبة ايضا ويحتمل
ان يكون مراده ولا ارقت لذكر البان والعلم المشبه بهما المحبوب في طول
القامة وحسن الهيئة وطيب الرايحة وانما اورد ذكرهما السهل لان
المحب تكثر حرارته فتتغير رطوبات دماغه التي هي من صعود الحرة من

المعدة اليه وانما يكون النوم في تلك الرطوبات اذا كثرت فتجد هناك ويكون عنها
النوم والسبات وكذا تنعكس الحرارة عند النوم الى داخل الجسد وسببها
الاعظم كثرة الطعام والشراب لاشتغال الحرارة بهضمها فيضعف ما يصل منها
الى الدماغ ويكثر فيه ما يفر امام الحرارة من الرطوبات الباردة فيخمد لذلك وينام
والمحب الذي الهاه حبه عن الاكل والشرب تضاعف حرارته الغريزية بالحرارة
التي اكتسبها من لوعة الحب وحرقته فتفنى رطوباتها فلا ينام لاسيما عند تذكر معاهد
الاحباب او ما هو شبيه بالاحباب واللام في لذكر البان للتعليل والى في الهوى
تحتمل الجنس اي لولا هذه الحقيقة او العهد اي لولا هواك وفي قوله لم ترق
التفات من الغيبة الى الخطاب نحو مالك يوم الدين اياك نعبد وسمر اردف هذا
الدليل بثالث فقال ولا اعارتك لوني عبرة وضنى اي ولولا الهوى لم تعرك
اي تعطيك على سبيل الاعارة ذكري الخيام فاعل اعارت ومضاف اليه والخيام
جمع خيمة وهو بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر وذكري ساكني الخيم والمراد
باللون هنا النوع فكانه شبه نوعي العبرة والضنا بلباسين اعارهما ذكري
الخيام وذكري ساكنيها للصب ووجه التشبيه ان آثار الحب زينة للصب
يتزين بها كما يتزين باللباس فرقة جسمه وصفرة لونه كثوب بديع الرقة والصنع
وذلك لون الضنا وانسجام الدموع كمطين او اكثر على التجريد بمثابة الدر المعلق
عليه وذلك لون العبرة وفي قوله ولا اعارتك لوني استعارة بالكناية وبلازمها
استعارة تخييلية وحقيقتها ان يضمر التشبيه في النفس ولا يذكر شيء من
اركانه سوى المشبه ويدل على التشبيه بان يثبت للمشبه شيء يختص بالمشبه
به يسمى التشبيه استعارة بالكناية وهو ها هنا تشبيه لوني العبرة
والضنا باللباسين ولم يذكر لكن ذكر ما هو من احوالهما وهي العارية فتشبيه
اللونين باللباسين هو الاستعارة بالكناية واثبات العارية لهما هو استعارة
تخييلية وسقطت النون من ساكنين للاضافة ولما اورد المخاطب

الحج القائمة على انه محب واكثر منها حتى لم يبق له عذر وصحت نتيجة المستدل
اقبل عليه بالخطاب وقال منكرا عليه بصورة الاستفهام فكيف تنكر اي
تجحد حبا اي بعد هذه الحجج وبعد ما شهدت اي اخبرت به اي بالحب
عليك عدول الدمع السايل من عينيك عند ذكر الطلل والسقم القايم بجسمك
لذكري الحيم وذكري ساكني الحيم وهي عدول لا ترد شهادتهم وعدول جمع
عدل واصله مصدر فالعدل باعتبار المصدر الذي هو اصله لا يثنى ولا يجمع
وباعتبار ما صار اليه من النقل للذات يثنى ويجمع فتقول عدلان وعدول
ثم عطف على قوله واثبت الوجد من جهة الحزن خطي عبرة وضني
اي مرضا مثل البهار بفتح الموحدة وهو ورد اصفر على خديك والعنم
بفتح العين والنون شجر له اغصان حمر ومراده تشبيه الخطين بالعنم
في الحمرة لا بمزج الدمع بالدم واثر الضنا بالبهار في الصفرة ولما كانت
هذه الحجج واضحة وعلى كل شرق لائحة افصح المخاطب فاقر بلسان المقالة
كما اقر بلسان الحال فقال نعم اي صدقت ايها السايل في كل ما
نسبتني اليه فاني بكيت وسجمت من تذكر الجيران الذين كنت فارقتهم وتسلية
عنهم بعض التسلي وسبب ذلك التذكر انه سري طيف اي خيال من اهوى
الى ليلا في النوم فانتبهت لذلك فزعا مرعوبا لما مر عني من الفرح بسبب
لقايهم ظنا مني ان ذلك في اليقظة ولما تبين لي انه حلم عاد لي ما كنت تسليت
عنه بعض التسلي فاثر ذلك عندي فارقني اي اسهر بي والحب يعترض
اللذات اي يحول دونها بالالم ويحتمل ان يكون معنى يعترض يغبن
اللذات من قولهم عرضته اي غبنته واعترض الشي صار عارضا كالخشبة
المعترضة في النهر واللذات جمع لذة وهي ادراك الملايم من حيث هو ملايم
والالم مقابله وقيل اللذات دفع الالم كالاكل لالم الجوع ورد بانه احد
اسبابها وقد تتصور دونه كالاستذابرويه وجه مليح فانه لم يتقدم الم

لفقده حتى يدفع فكانه قال كان لى قبل طروق خيالهم التذاذ بالنوم الموجب لراحة
بدني عند من يرى للذات وجودا بانفسها لا انها اضافية او تسليتي عن الم فراقهم
عند من يراها دفع الالم ثم لما اقر المحب للعاذل وصدقه فيما نسبه واخبره
بالسبب اخذ الآن يلومه كما لامه فقال يا لائمي اي يا عاذلي في الهوى
العذري اي الموصوف بكونه من هوى بني عذرة اقبل او خذ معذرة مني اليك
او اعذر معذرة ويصح رفعها اما انها خبر مبتدا محذوف اي هذه معذرة او
على انها مبتدا ومني صفة له واليك الخبر ولو انصفت لم تلم لكنك لمت فلم
تنصف ولو حرف امتناع لما كان سيقع لو وقع غيره ولم تلم جوابها وهو
وبنو عذرة قبيلة من اليمن قاله الجوهري اذا دخل احدهم الهوى لم يزل به حتى
يقتله غالبا وانما اختصوا بذلك لصدقهم ورقة قلوبهم فهم اذا هووا
واذا احبوا سقطوا واخبار العذريين كثيرة يكمل النظم دون المعشار
منها ذكر بعضها في رياض الالباب. ونزهة الاحباب. وفي هذا البيت
اشارة الى انه ينبغي ان يستغرق في طاعة بان يكون ممن اولياءه ولا عليه
من عذل من عذله على ذلك وليجتهد في احياء سنن الهوى واتباع طريق
المهتدين. وان عنفه في ذلك احد فليعرض عن الجاهلين ثم اخذ وجه
الله تعالى يستعطف العاذل لعلمه بر قوله فيقبل عذره فقال
عدتك اي جاوزتك حالي. بفتح الحاء الياهيئتي والحال يذكر ويونث
والافصح التانيث ويحتمل ان يريد بقوله عدتك الاستفهام على سبيل الانكار
اعدتك وحذفت الهمزة للعلم بها كما قيل في قوله تعالى حكاية عن الخليل ابراهيم
عليه الصلاة والسلام هذا ربي وعلى هذا يكون تاكيد القوله ولو انصفت لم
تلم وكان العاذل قال حين استفهمه نعم جاوزتني فقال الصب خذ علمها
لا سري بمستتر اي بمنكتم عن الوشاة الذين هم اعدائي والواشي الكذاب
النمام الذي يبلغ الحديث ويزيده ولا داء في الحب اي من صبي بمتحسم اي ليس

بمنقطع

بمنقطع حتى يرجى زواله ويحتمل ان تكون الجملة خبرية اي جاوزتك حالتي فانت تتعجب بمصيبتي حتى تعلم مقدار ما انا فيه ولو اصبت بها لما عذلتني وعذرتني ويكون قوله لا ترى على هذا التقدير جواب سؤال مقدر كانه قيل له وما حالتك التي استعظمتها فقال لا ترى الي اخره ولما كان العاذل احدا بدى عذله في صورة نصح وكان ابغض شيء الى المحب العذل على اي حال كان قال له محضتني اي اخلصت لي النصح بزعمك وانا لا اسلم لك ذلك سلمت انه كما ذكرت لكن لست اسمعه منك اي لا اقبله لكم ابدي عذره في ذلك بقوله ان المحب عن العذال في صمم فلا يسمع عذلهم اي لا يقبله ولا محل لجملة محضتني هنا لانها استئنافية او تفسيرية للوم اللائم المتقدم وجملة اسمعه في محل نصب على انها خبر ليس ثم اخذ الناظم كانه يقول امسك ايها العاذل عن نصحك فاني اتهمت من لا يتهم فقال اني اتهمت نصيحة الشيب الذي هو بياض في شعري في عذلي والشيب ابعد في نصح عن التهم يصح ان يكون ابعد افعل التفضيل وهي الرواية ويصح ان يكون فعلا ماضيا ومعنى كون الشيب ينصح انه منذر بقرب الاجل وحلول الموت الموجب لاشتغال العبد بما يقربه الى مولاه زلفى ويورثه لديه حسن العقبى وليس بعد بياض الزرع الا حصاده وقيل في قوله تعالى وجاءكم النذير انه الشيب وكأن الشيب يقول للمحب اترك ما انت عليه من الهوى واشتغل بما ينفعك في اخراك كصورة ما يبديه العاذل في نصحه وما احسن قول قمر الدولة

لما رايت الشيب في الشعر الاسود قد لاح صحت واحزني

هذا وحق الاله احسبه اول خيط سدي من الكفن وقول الاخر

لم لا انتهيت وقد الم نذيره للشيب يوذن انه سيطير
اما الشباب فانه عذر وما للمرء من بعد المشيب عذير

ولما كان قوله اني اتهمت نصيح الشيب يستلزم انه لم يعظه ولم يوخذ بقوله اخذ
يبين علة ما اجمله في ذلك فقال فان امارتي اي نفسي الامارة بالسوء
فلم تقبل موعظة الشيب من أجلها جهل جهلها بنذير الشيب اي جهلت
انذار الشيب والهرم وهو كبر السن وضعف القوي فنذير على هذا بمعنى
المصدر او يكون مراده بالشيب النذير ويكون من باب اضافة الصفة الى الموصوف
ويكون التقدير ايضا ونذير الهرم اي والهرم النذير او انذار الهرم على التقدير
الاول قيل اضاف امارة التي اعني بها نفسه الى يا المتكلم وهي ايضا نفسه
فيكون على هذا نفسه امارة مامورة والعقل يقضي بتغايرهما واجيب بان
الانسان اذا عزم على شي تردد فيه فتارة يشتد عزمه على فعله وتارة على
تركه فهما خاطران فالصواب منهما النفس المطمئنة وهي المامورة بالسوء
ومخالفة الامارة قال بعضهم والاولى ان يقال الامارة هي النفس والبا
المضاف اليها هو البدن وهو المامور فالنفس مستولية بسلطانها
على البدن تصرفه في شهواتها الا ان يردعها رادع العقل وذكر بعضهم ان
النفس تنقسم على ثلاثة اقسام لثلاثة احوال امارة وهي التي لا يلوح لها
طمع الا تعرضت له ولا تبرز لها شهوة الا اقتضتها لم تسلك طريق الرشاد
ولا استضات بنور السداد ولا احتكمتها الرياضة فهي تهيم في وادي
البطالة وذلك المعبر عنه بالهوى ومطمئنة وهي التي ثبتت لها من الله العصمة
وسبقت لها من الله السعادة وكميت مطمئنة لاطمئنانها الى ذكر الله تعالى
وقيل الى الايمان وقيل الى التصديق بوعد الله وقيل غير ذلك قال تعالى يا
ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك الاية ولوامة وذكرها الله تعالى بقوله
يا ايها لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة وهي التي اذا وقعت
في معصية بسابق القضاء وجبت بالملامة على ذاتها وتلك حالة حميدة حصولها
ان شاء الله تعالى عاقبة جميلة قال جعفر الصادق من لم يتهم نفسه على دوام

الاوقات

الاوقات ولم يخالفها في جميع الاحوال كان مغرورا ولو من نظر في الحسان شيئ
منها فقد اهلكها وقيل المجبولة على سوء الادب والعبد مامور بملازمة
الادب فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده
عن سوء البطالة فمن اعرض عن الجهد فقد اطلق عنان النفس وغفل عن
الرعاية ولا اعدت اي هيات من الفعل الجميل اي الحسن قري ضيف
الم بتشديد الميم اي نزل برأسي غير محتشم اي غير مستحي ولا منقبض
لان من اداب الضيف ان لا يكثر من الاقامة عند من اضافه حتى يخرجه فمن
لا يفعل ذلك من الضياف كان محتشما فعلى العاقل ان يستعد بالاعمال
الصالحة لضيافة ضيف الشيب الذي اذا نزل لا يرتحل الا بالموت فانه
ان اخر الاستعداد الى نزوله قد لا يتمكن من شئ لسرعة الرحيل وضيق الوقت
ووجه تشبيه الشيب بالضيف ان الذي كان ملازما للانسان قبل الشيب هو
الشعر الاسود فلما تبدلت صفته كان كالضيف الاجنبي ولما كان نذيرا بانقضاء
العمر صار بلسان حاله كالطالب للمبادرة بالاعمال الصالحة التي هي زاد
للاخرة كما يطلب الضيف قراه تصريحا او حكما وقاف قري بكسر القاف
ولما بين ان نصح الشيب لا ينبغي ان يهمل نصحه واعتذر عن عدم قبوله
بالنفس الامارة وكان يرتقب حلوله فلما لم يتم له هناه ولم يطابق فعله
بعد ظهوره ما نواه لغلبة النفس النفس الامارة ورأى من سوء العاقبة
وتقبيح الفعال من الناس ما لم يكن قبل لزم على ان لا يكون كتمه عند
ظهوره او اخفاه فقال لو كنت اعلم اي اعرف او اتيقن قبل نزول
الشيب اني ما اوقره بعد نزوله بي اي لو كنت اعلم اني ما اطيقه وأترك
فعل القبيح استحيا منه كما نويت قبل نزوله كتمت اي اخفيت سرا
بدا اي ظهر لي منه بالكتم خضبا او بغيره مما يخضب والكتم بنت تختضب
به كالحنا وعبر الناظم عما بداله اولا من الشيب بالسر لانه قبل ظهوره

خفي لانه كحديث النفس الذي لم يظهر اولانه منذر بقرب الاجل الذي كان خفيا
قيل لا معنى لقوله لي لولا الوزن فان المستقبح منه ما يبر ولغيره فيلومه لا
ما يبر وله هو واجيب بانه اذا ظهر الشيب فاول ما يطلع عليه صاحبه في
الغالب لاهتمامه بشان نفسه اكثر مما يهتم غيره فلذا قال لي فليس قوله لي
كالمستغنى عنه كما زعم فقد علم ان قوله لي احتراس ويحتمل ان يكون من البيان
بعد الاجمال وهو من باب الاطناب نحو رب اشرح لي صدري ويسر لي امري
وفايدته علم الشي اجمالا ثم تفصيلا ثم استفهم عمن يتكفل له برد جماح نفسه
الامارة بالسوء بالمواعظ السنية والاسرار الربانية فقال من لي بردها
اي قوة من غوايتها بفتح الغين اي ضلالتها كما يرد جماح الخيل باللجم القوية
لا كعنان واعظ الشيب وهذا يسمى استفهام تضرع واستعطاف ولما امر
برد النفس عن جماحها باقصى ما يكون من العنف كرد الخيل الجموحة باللجم القوية
وكان من الجايز ان يقال بل الاولى السياسة في ردها ليلا تسعر فقال فلا ترم
اي تطلب بالمعاصي كسر شهوتها فان ذلك غلط فان تماديها على العصيان
موجب لتاسفها به وصعوبة اقلاعها لانها الفت ذلك بل ينبغي ان تقلع جملة واحدة
كما يرد اللجام الجموح واصل ترم ترروم فلا فجزم بلا الناهية فالتقا ساكنان
الواو والميم فحذفت الواو لالتقا الساكنين ثم استدل الناظم على ما ذكره
بقوله ان الطعام يقوي شهوة النهم اي تمكين النهم من الطعام يقوي ويزيد
في شهوته اياه بخلاف ما اذا رفع من بين يديه فانه لا يجد ما يشتغل فيه فيياس
منه فكذلك النفس اذا حيل بينها وبين المعاصي تياس منها وتعود الى الطاعة
قيل دليله غير ظاهر فان النهم انما تقوي شهوته الى الطعام اذا لم يشبع
منه واما اذا شبع فقد اخذ حاجته منه واجيب بما حاصله ان العرب
تقول تطعم تطعم ذق تاكل والمعدة ابدا تتنعم لما يلقى فيها من الطعام
الا لما نع وقوتها الجاذبة لا تترك شيا وان امتلات لاسيما معدة النهم ومثال

هذا

هذا ما ذكره بقوله والنفس وهي الروح او الدم او الجسد كله كالطفل المولود
ان تهمله اي تتركه يشب اي يكبر على حب الرضاع لانه قد الفه وان تفطمه
عنه ينفطم ولم يصر طالبا له بوجه من الوجوه وقد كان قبل ذلك يبكي فلا يسكت
حتى يرضع فلما فطم يئس منه فكذلك النفس انما تنفطم عن مالوفها بوارد قوي
او لطفي الهي ويحيل بعضهم على الاسلام فقال ذبح النفس بسيف المجاهدة وروي
المخالفة ولما شبه النفس بالطفل وكان الطفل لا يؤمر ولا ينهى لانه لا يفهم ذلك
وان فهم فلا يمتثل وانما الشان في ازاحته عنه اذ لا يمكن منه امر هنا بصرف
الهوى عن النفس حتى لا تجده فتتعلق به فقال فاصرف هواها على حسب
الطاقة ولم يقل فاصرف النفس عن هواها لانها لا تفهم هذا المعنى او تفهمه
ولا تمتثل كالطفل وحاذر اي احذر من ان توليه اي تأمره من الامارة
التي هي الولاية ويروي توليه من المولاه ان الهوى ما تولى يضم بضم اليا
من اصميت الصدا ذا رميته فقتلته او يصم بفتح اليا اي يعيب من وصمه يصمه
وصما اذا عابه والوصم العيب والعار وانما عبر بحاذر دون احذر تنبيها على
ان النفس تراقب غفلة صاحبها عنها لتقع في هواها فهي تحاذره كما يحاذرها وفي
قوله فاصرف هواها الى اخر البيت استعارة بالكناية فانه شبه النفس فيه
بطالب الامارة وحذفه واثبت من لوازمه الامر بصرفه عن التولية وانه جائر
ظالم لانه ان تولى قتل او عاب فهي ترشيحة لانها قرنت بما يلايم المستعار منه
وظاهر كلامه ان النفس تصرف عن كل ما تهواه حتى عن الطاعة ان هويتها لكن
ازال هذا الاشكال بقوله وراعها اي ولاحظها وهي في الاعمال الصالحة
سائمة اي راعية ولما كان للنفس حظ في افعال بعض العبادات كان
ربما يلحقها نبه على ذلك بقوله وان هي استحلت المرعى اي وجدته
حلوا فاتهمك عليه او همت عليه بالعكوف فلا تسم فلا تحزجها الى ذلك المرعى
حتى تنفقد وسائسها لان النفوس البشرية الا من رحم الله لا تهوى الا الطاعة

من حيث هي طاعة فاذا استحلها او مالت اليها امكن ذلك ان يكون لها غرض في
معصية ثم استشهد على هذا المعنى بقوله كم حسنت كثيرا ما زينت
لذة للمراء قاتلة له من حيث لم يدر اى لم يعلم ان السم بفتح السين وضمها
دس له في الدسم فاكله ولم يتفقد باطنه مما دس فيه وخص الدسم لانه
لانه يعلو الاشيا فيستر ما تحته كصورة العبادة الساترة لما بطن من النية الخبيثة
اولان الدسم لسهولة امتزاج السم به يخفى الا على المتفقد اللبيب كخفا النيات
في العبادات واخشى الدسايس اى اخشى ما تخفيه النفس من المكر حالة
تلبسها بقليل العبادات وكثيرها وكنى بقوله من جوع وعن كثيرها بقوله
ومن شبع كانه من باب تسمية الشي بما يؤول اليه لان قلة العبادات تؤول
الى الجوع في الاخرة بالنسبة الى شبعها وكثيرها يودي الى شبعها ومنه قوله
تعالى اني اراني اعصر خمرا فسمى العنب خمرا فرب مخمصة اى مجاعة شر من التخم
جمع تخمة قيل فساد الطعام في المعدة والصواب فساد المعدة بالطعام وفسرت
ايضا بانها ضد المخمصة ولا يصح فان الشبع ضدها وان لم يتخم واصل التخمة وخمة
فابدلت الواو تا يعنى ان النفس تزين لصاحبها قليل العبادة بان تقول له
الاكثار من العبادة يضر بالبدن فيودي الى العجز بالكلية والكثير منها ربما يودي
الى الرياء فلا زم القليل وداوم عليه ويكون قصدها بذلك الراحة وقصدها
له كثير العبادة لكثير الثواب ويكون قصدها الشهرة عند الناس حتى يمجدوه ويعظم
عندهم حتى لو امرهم بامر تبادروا الى امتثاله وهذا هو الغاية القصوى
من مطالب النفس المهلكة وهي مفسدة عظيمة فانه حينيذ يقصد بعبادته غير
وجه الله تعالى لكن هذه المفسدة وان كانت عظيمة لكنها مع الاستكثار من
العبادة قد يسلم له كثير منها وان كان يقصد ببعضها الرياء كالفرايض التي لا رياء
فيها وما يفعله منها خاليا وكان بعض المشايخ يقول اجتهدوا في اصلاح
ظواهركم فانكم ان فعلتم يوشك ان تصلح بواطنكم ويحكى ان رجلا

تعبد

تعبد سنين ليشتهر بذلك وتودع عنده الامانات لينتفع بها فلم يودع عنده شيء
فلما طال عليه الامر ذبح نفسه وقال لوان هذه العبادة تطلب ما عند الله لكان
الفوز الاعظم فعقد التوبة جزما فلما اصبح اتي بامانة فقال لصاحبها ما كان
بيننا وبينها الا ظلام الليل اذهب بسلام وحاصل ما اشار اليه الناظم ان
قلة الطعام المكنى عنها بالجوع والمخمصة اشرف من كثرتها الكاين في بعضها الريا
وهي المكنى عنها بالشبع والتخم ولما امر بتخليص الاعمال من المفاسد امر بالتوبة
والندم والبكا على ما عساه وقع منها فاسدا او على ما صدر من المعاصي فقال
واستفرغ الدمع اي اطلب اراقته بالبكا من عين قد امتلأت من الانام
من اجل النظر الى المحارم التي حرم الله النظر اليها والزم حمية الندم من
حميت المريض الطعام اذا منعته منه كانه قال الزم منع الندم اياك من الوقوع
من المعاصي وابوا بالتنصل من تبعات العين لان البكا علامة الندم على جميع ما
سلف ولان السبب في الاعظم في الوقوع في المعاصي هو النظر لان الناظر ينظر
فيستحسن فيقع في ما لا يحب وقانا الله تعالى الفتن ما ظهر منها وما بطن. ثمنه
وفضله البكا على الخطيئة من افضل القرب واسني الرتب. قال عيسى عليه
السلام طوبى لمن بكى على خطيئته. وانما قال الناظم استفرغ ولم يقل وتفرغ
لافادة ان ذلك لا يكون الا بالطلب ومعلوم ما فيه من المشقة لاسيما في طلب
ما يخالف هوى النفس والى في الدمع للحقيقة اي لا تبقى فيها ما امكن وذلك
قليل في جنب ما فرطت وخالف النفس والشيطان فيما يدعونك اليه
من التمادي على الغي او غير ذلك فان مخالفة النفس رأس العبادة وترك سوء
شهواتها اول مراتب السعادة. وكذا قيل النعمة العظمى الخروج من النفس
لانها اعظم حجاب بينك وبين الله قال الله تعالى واما من خاف مقام ربه
ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى وقد سيل بعض المشايخ عن الاسلا م
فقال ذبح النفس بسكين المخالفة وقال سهل بن عبد الله ما عبد الله بشيء مثل

مخالفة النفس بالهوي واما الشيطان فعداوته ظاهرة لا تخفى وكيف يقبل
اللبيب نصيحته ام كيف يامن العاقل خديعته انظر فعله مع ابيك وقد اقسم
له انه لمن الناصحين فكيف بك وقد اقسم ليغوينك اعاذنا الله منهما ثم نبه
الناظم على انه لا يكتفى بمخالفتهما بل لابد فقال واعصهما لانه قد يخالف ما امراه
به الى غيره مما يرميان به وقيل يحتمل ان يريد خالفهما في المكروه والحرم معا
واعصهما في الحرم فيكون من عطف الخاص على العام او يكون من عطف المغاير
اي خالفهما في المكروه واعصهما في الحرام ثم قال وان هما محضاك اي اخلصا
لك النصح فيما ابدياه لك فاتهم الناصح من كل منهما ومثال ذلك ان يقول
النفس متعنى بهذه الشهوة لا متثلا منها ثم اتوجه الى الطاعة فارغا او تقول
لمن نوى الجد في العبادة ان الله غني عن عبادتك وعنك فحافظ على اصل الايمان
ويكفيك او تقول للمنهمك في العصيان انك قد اجترمت امورا عظاما لا
تقبل لك معها توبة فاربح دنياك والحق بان في قوله وان هما لانه امر مشكوك
فيه بل لا يفرض الا كما تفرض المحالات فان النصح لا يتصور من جنسهما ثم قال
ولا تطع منهما خصما في ابتدا الامر كما اذا اورد احدهما الاقدام على المعصية
وهذه صورة كون احدهما خصما فانه حينئذ يزين القدوم عليها والمامور
يدفع ذلك لما يعلم من سوء العاقبة فهما خصمان ولا بعد الاشتغال بالمعاصي وهو
مراده بقوله ولا حكما لانه اذا استولى سلطان احدهما فالمكلف يريد التفصيل
والنفس او الشيطان يزين له البقا والتسويف وطول الامل ويضر به احط بعد
اجل فعل الحكام فيما يقطعون به الحقوق والامر فيما يعدون باعطائه
فانت تعرف كيد اي مكر الخصم والحكم اي فانت تعرف كيد النفس والشيطا
الذين يكون كل منهما خصما مرة وحكما اخرى وهذا البيت قريب من معنى البيت
الذي قبله ولما حذر من غوائل النفس وامر بصرف الهوى عنها ومخالفتها
ومخالفة الشيطان خاف على نفسه الريا فاخذ يفض منها ويستقصرها طالبا

مغفرة الله تعالى فقالت استغفر الله اي اطلب ستره وتغطيته من اجل
قول صدر مني بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا عمل اي وليس لي عمل اولم
اتلبس بعمل موافق لما امرت وناهيك به قلة حيا واكبر زلل وفي ذكر فضل
الاستغفار طول يخرج عن المقصود وما احسن قول القائل ،
« ولو ان مزعوم لما طغى . وقال على الله افكا وزورا ،
« اناب الى الله مستغفرا . لما وجد الله الاغفورا ،
والمراد بقولها استغفر الله الانشاء وهو يطلب مفعولين والثاني مجرور وهو
هاهنا من قول ويجوز حذف جاره نحو استغفر الله ذنبا اي من ذنب
لقد نسبت اي اضفت به نسلا ولدا الذي عقم بضم القاف اتباعا لضمة العين
اي لا تقبل الولد اي ان مثلي فيما تصديت له بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر
وتخلفي عن العمل كمثل الذي ينسب النسل الذي هو الولد للعقيم فكذا الكماة
نسبت لنفسي من رتبة الوعظ فانها لا تنسب الا لمن يأتمر وينتهي ولما
كان ما مثل به غير ظاهر لكل احد فسره بقولها امرتك الخير بفتح الراء بنزع
الخافض تقديره بالخير لكن ما ايتمرت انا به وما استقمت اي اعتدلت
فما الفايدة في قولك استقم واصل استقمت استقومت نقلت حركت العين
التي هي الواو لانها حرف علة الى الساكن الصحيح قبلها فقلبت الواو الفا
لسكونها وانفتاح ما قبلها ثم سكن اخر الفعل للاسناد فحذفت الالف
لالتقا الساكنين ولا تزودت اي ولا اتخذت من الزاد قبل سفرا الموت
المفوت للطاعات نا قلة من الاعمال الصالحة التي هي التطوعات بعد اداء
الفرايض لان التزود بالفرايض لذلك السفر قد لا يكفي لاحتمال ان يكون فيما
نقص يكمل ولم اصل سوى فرضي وكذا لم اصم سوى الفرض ايضا وحذف
ذلك لدلالة ما قبله عليه ثم شرع فيما قصده من مدح سيد المرسلين عليه
افضل الصلاة والتسليم بقولها ظلمت بتركي ذلك سنة سيد المرسلين عليه

افضل الصلاة والتسليم من احيي الظلام بالصلاة الى ان اشتكت قدماه
من طول قيامه المضمن ورم وسبب تورم قدميه الشريفتين صلى الله عليه وسلم
انصباب المواد الكائنة في اعماق الجسم اليهما وسهولة الانصباب حينيذ وعدم
استقرارها في الاعضا كالما النزل من اعلى الى السفل والاستلقا او الجلوس او الحركة
يمنع كثيرا من ذلك فصارت قدماه بعد ذلك كحالة البشاكي ما نزل به من ضرر
ذلك الورم واشار بذلك الى ما اخبرنا به الشيخ الصالح شهاب الدين ابو العباس
الجمالي قراءة عليه قال اخبرنا الشيخ ابو اسحاق ابن عبد الواحد المقرى اذنا قال
اخبرنا ابو الحسن البندنيجي سماعا انبانا ابو منصور ابن الهني سماعا وابو محمد البارد ي
اذنا قال الاول انبانا ابن الاخرم اخبرنا ابو الفتح الكروخي وباجازة الثاني غالبا
منه اخبرنا ابو عامر الازدي وابو بكر التاجر قالا اخبرنا ابو محمد المروزي اخبرنا
ابو العباس المحبوبي انبانا ابو عيسى ابن سورة الحافظ اخبرنا قتيبة وبشر بن معاذ
قالا اخبرنا ابو عوانة عن يزيد بن عفافة عن المغيرة ابن شعبة قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم
من ذنبك وما تاخر قال افلا اكون عبدا شكورا وقوله ظلمت من الاستيناف
البياني كان قايلا يقول هل انضعت في اقتصارك على الفرض من صلاة وصيا م
او ظلمت فقال ظلمت وفيه حسن التخلص ثم اخذ يذكر ملازمة رسول
الله صلى الله عليه وسلم الصيام في النهار فقال و شد اي عصب وربط
من سغب اي جوع احشاه اي شيا من جلد بطنه وهي ما انضمت عليه ضلو عه
الشريفة وطوى تحت الحجارة كشحا مترف اي ناعم الادم اي شي من جلد
بطنه تحت الحجارة وهي ما بين خاصرته واقصر ضلع من جنبه الشريف وانما فعل
هذا صلى الله عليه وسلم ليسكن بعض الم الجوع وانما كان هذا الفعل مسكنا لان الجوع
من شدة حرارة المعدة الغريزية اذا امتلات من الطعام اشتعلت تلك الحرا ة
بالطعام فان لم يكن فيها طعام طلبت رطوبات الجسم وجواهره فيتالم الانسا ه

بشكل

بتلك الحرارة فتعلقت بكثير من جواهر البدن واذا انضمت انضم على المعدة الاحشا
والجلد فاخمدت نارها بعض الاخماد فقل الاولي وفاتت الحرارة الحرارتان احدهما
تشديد الجلد ليكثر انضمامه على الاحشا وهو المقصود بالشد والثاني ما فيه من
البرودة لتسكن من حرارة البدن وتشتغل ببرودته فان قيل ثبت في
الصحيح انه صلى الله عليه وسلم حين نهي الناس عن الوصال وقيل له انك تواصل قال
• اني لست كهيئتكم ابيت يطعمني ربي ويسقيني فمن هذا حاله كيف يتالم بالجوع
حتى يحتاج الى عصب بطنه بحجر فالجواب انما نهاهم عن الوصال ليلا
يضعف قواهم فلا يقدرون على الجهاد ولا على القيام بغيره من العبادات
ولم ينههم لاجل تالمهم بالجوع خاصة وان التالم سبب الاجر وافضل العبا دات
اجرها واذا كان كذلك فهو صلى الله عليه وسلم ضمن الله تعالى له قوته وانما تالم بالجوع
ليحصل له تضعيف الاجر مع حفظ قوته ونضارة جسمه حتى ان من يراه لا
يظن ان به جوعا لان حسنه صلى الله عليه وسلم انما كان يرى اشد نضارة
من اجسام المترفين بالنعم في الدنيا وهذا المعنى هو الذي قصده الناظم رحمه
الله تعالى بقوله مترف وهو من باب الاحتراس والتكميل لانه لما ذكر شدة
سغب خاف ممن يتوهم ان جسمه الشريف حينئذ يظهر فيه اثر الجوع فاحترس
ودفع ذلك الايهام بقوله مترف الادم وقول الجوهري انه يقال فلان اترفته
النعمة اطغته ان صح ان هذا معنى الاتراف لغة فالاولي بالناظم ان يقول
نا عم مكان مترف فان قيل كيف علم جابر ما به صلى الله عليه وسلم من الجوع واخبر بذلك
امراته واثر الجوع لا يعرف فيه فالجواب انما عرفه بعد ان كشف بطنه
متهيا للحرف كما ثبت في الصحيح ولما ذكر من جوعه صلى الله عليه وسلم ما
ذكر خاف ان يتوهم سقيم القلب عند سماع ذلك انه من فاقة وعيلة فيستبعد
ذلك لانه خلاف قوله تعالى ووجدك عائلا فاغنى فاردف ذلك
بقوله ما يرفع التوهم وراودته صلى الله عليه وسلم اي جاءته الجبال الشم

المرتفعات الروك على انفسها ان تكون من ذهب وتسير معه حيث ما سار
باذن الله تعالى وان تطاوعها نفسه على ذلك وهذا معنى قوله عن نفسه
واسناد المراودة اليها يحمل بان تكون حقيقة بان يخلق الله تعالى فيها النطق
وادراك ذلك ويحمل ان يكون مجازا تشبيه فاراها اي ابصرها حقيقة
بان خلق الله فيها الادراك او مجازا اي جعلها تبصر منه تمما ايما شمم
لانها لما ناهت بارتفاعها الصوري الذهني ووثقت بان تشم رايحتها ويضمها
اليه اراها صلى الله عليه وسلم في انفه الشمم الدال على الاعراض عنها وعدم الالتفات
اليها كما روينا في كتاب الترمذي انه صلى الله عليه وسلم قال عرض علي ربي ان
يجعل بطحاء مكة ذهبا فقلت لا ولكن اشبع يوما واجوع يوما الحديث وروي
وروي انه لما جاءه جبريل بذلك فقال يا جبريل صف لي الدنيا فقال يا محمد
حلالها حساب وحرامها عقاب. فاختار الفقر والدار الاخرة والظاهر في
قوله من ذهب ان يتعلق بمحذوف اي ان تكون من ذهب كما قدرناه ولا بد من
هذا التقدير للاحاديث الواردة في ذلك لانها لم تكن من ذهب وانما راود وعرض
عليه ان تكون كذلك والذي يقتضيه الاحاديث الدالة في ذلك ان الجبال التي
راودته هي جبال مكة وليس اعراضه صلى الله عليه وسلم عن جبال الذهب من
كثرة المال بل كان مع شدة الحاجة والضرورة كما فرض من الحديث واشار
اليه الناظم بقوله واكدت زهده فيها ضرورته الى بعضها وضرورته
بالرفع فاعل زهده ان الضرورة لا تعدو على ذوي العصم لانهم يتنزهون
معها عن اشرف الاشياء واجلها فضلا عن احسها وهم الانبياء صلوات الله
وسلامه عليهم اجمعين فيكون مراده الجنس ويحتمل ان يكون المراد الشخص
المعهود فيكون مراده محمد صلى الله عليه وسلم لانه ذو عصم حمة والعصمة قوة
من الله تعالى في عبده تمنعه من ارتكاب شيء من المعاصي والمكروهات
واعلم ان القوم تكلموا في الزهد باقوال كثيرة وكل نطق عن وقته واشار

الجزء